مضامين شعر الشكوى الذاتية في القرن الأول الـــهجري

غلامعباس رضايي هفتادر*
أستاذ مشارك بـــجامعة طهران
شرافت كريـــمي
أستاذة مساعدة بـــجامعة كردستان
(١٩٢-١٧١)
تاريخ الاستلام: ٩٢/٠٦/١٦؛ تاريخ القبول: ٩٢/١٢/١٤

الـــملخّص

شعر الشكوى تعبير ذاتي عن هموم الإنسان الناتجة عما يعرض له من مشاكل الـــحياة الـــخاصة والعامة. فهذا الشعر يمثل بداية خروج الإنسان إلى الـــمواجهة الـــحقيقية مع الـــجوانب السلبية في الـــحياة، حين لا يملك أمامه إلا رفع الصوت بالشكوى لتخفيف همومه وتصوير واقع حياته ومعاناته النفسية. الشكوى غرض قديم في الشعر العربي؛ فالـــموت والدّهر والـــحب والفراق والسجن والشيخوخة والـــمرض والذنب ومصائب الـــحياة تعتبر من أهم بواعث الشكوى الذاتية في القرن الأول للهجرة. ظلّ شعر الشكوى الذاتية في هذا القرن امتداداً لما كان سائدا في شعر العصر الـــجاهلي من حيث الوزن والبناء والصور الشعرية، لكنه عندما أشرق الإسلام تغيرت جوانب كثيرة من الـــحياة، وأثّر هذا الأمر على وجهة نظر الناس فيها؛ فقلّتِ الشكوى من الفقر والـــموت وما يشعر به الإنسان من مشاكل الـــحياة، وصارت آلامها أخف وطأة مما كان يشعر به الشاعر الـــجاهلي. وكذلك كثرت الشكوى من فراق الأبناء والأقارب الذين هاجروا إلى البلدان الـــمختلفة لنشر الإسلام في الأقطار الـــمحاذية. ففي شعر الشكوى في القرن الأول الهجري تتشابه الأساليب، وتتداخل فيها الـــمعاني والتجارب الذاتية، بينما تختلف الصور الفنية من شاعر إلى آخر. إنّ شعر الشكوى يأتي تارةً في قصائد مستقلة، وتارةً أخرى يأتي ضمن الأغراض الشعرية الأخرى، وعلى أي حال فهو يمثل غرضاً شعرياً مستقلاً من حيث الـــمعنى والصور الفنية؛ وهو لا يقلّ في جودته، من حيث الـــمعنى والتفنّن في الأساليب واستعمال أدوات اللغة، عن أي غرض شعري آخر.

الكلمات الدليلية: الشعر العربي، الشكوى الذاتية، القرن الأول الهجري.

---

* البريد الإلكتروني للكاتب المسؤول: ghrezaee@ut.ac.ir

المقدمة

تدور مادة «شَكو» حول دلالات متعددة، لكنها لا تبتعد عن معناها الأساسي، فأصل «الشَّكو» هو فتح الشَّكوَة وإظهار ما فيها، وهي سقاء صغير، فاستخدامها في هذا المعنى من باب الاستعارة؛ كقولهم «بثثتُ له ما في وعائي، ونفضتُ له ما في جرابي؛ إذا أظهرت له ما في قلبك.» (الزبيدي والأزدي:مادة شكا) تدور دلالة الشكو والاشتكاء والشكوى والشكاء والشكاة حول الحزن والمرض والتوجع من شيء تنوء به النفس الإنسانية. فقال الله تعالى: ﴿أشكو بثّي وحُزني إلى اللهِ وأعلمُ مِن اللهِ ما لاتَعلَمون﴾. (يوسف:٨٦) وأما مفهوم الشكوى في الأدب فلم نعثر على حدٍّ له متفقٍ عليه في كتب المصطلحات، نحو: «التعريفات» للجرجاني(ت:٨١٦هـ.ق)، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي (ت:١١٥٨هـ.ق)، وبعض المعاجم الحديثة، مثل المعاجم الأدبية والمصطلحات العربية في اللغة والأدب. ومن الممكن أن نحدّد مفهوم الشكوى من خلال دلالتها في المعاجم اللغوية أولاً وفي الشعر ثانياً لنعطي تعريفاً يناسب السياق الأدبي في ضوء النصوص الشعرية.

إن الشكوى تعني التوجع من شيء تنوء به النفس كالمرض، والشيخوخة، والموت، والدهر، والحرب، والخيانة، والغدر، والظلم، والكذب، والفقر، والدَّين، وغيرها من المظاهر والحالات التي قد تعرض للشخص وتكدر عليه صفو الحياة، فيشعر إزاءها بالهموم وشدة اليأس؛ فينفجر شكواه ويصور مصائبه للآخرين. فهذا التعريف يقوم على أساس وجود شاك ومشكو ومشكو إليه وموضوع الشكوى ثم هدف الشكوى وغايتها. وحينما تعد الشكوى حاجة نفسية عند الشاعر في حياته الخاصة وعن طريقها تخِفّ آلامُه التي لم يعد في وسعه أن يتحملها ويصبر عليها، تُعْرَف بالشكوى الذاتية، وعندما تكون الشكوى من المجتمع و تتعلّق بالحياة الاجتماعية، تسمّى بالشكوى الاجتماعية، وحينما تكون وليدة المشاكل السياسية وقضاياها ومصادر السلطة، يُطْلق عليها بالشكوى السياسية. (البستاني، ١٩٨٧: ٢٥) وفقد التحمت الشكوى الذاتية في كثير من الأحيان بالشكوى الاجتماعية، وهناك وجوه دقيقة تفرق بينهما، فيجب أن لا نعدمها في النصوص الشعرية التي ندرسها.

فعلى التعريف السابق يتضح لنا أن الشكوى غرض قديم في الشعر العربي؛ منذ أخذ الإنسان يعبر عن ذاته مفصحاً عن حاجاته، ومنذ أن أصبح يحس بوجوده في مجتمعه مؤمناً بالـجماعة ومرتبطاً بمن حوله من أبناء جنسه، يتحدى معهم الصعاب، ويواجه مشاكل عصره؛ فمنذ ذلك الـحين بدأ الإنسان يشكو ويصور همومه ومعاناته للآخرين، فيناجي ذاته، ويبث آلامه، وربما اتسع مستوى هذه الشكوى، بحيث ينطق باسم مجتمعه مجسداً قضاياه، مهما كانت وعمق تأثيرها. فشعر الشكوى يمتاز عن غيره من الأغراض الشعرية بأنه يعالـج قضايا كثيرة وموضوعات متنوعة، ورغم أنه شعر ذاتي في قسم كبير منه، فإنّه يحتوي على مشاهد اجتماعية وسياسية وعناصر عقلية ومعانٍ إنسانية بعيداً عن الـمجاملة وتجاوز الـحقيقة.

فالشعر من أقدر الأدوات على تجسيد معاناة الإنسان ورسم الأبعاد الـحقيقية لظروفه الذاتية والاجتماعية والسياسية والسعي لإيجاد الـحلول الـمناسبة. فالشاعر بمواهبه الفكرية والعاطفية والعقلية يسجل كثيراً من الأحداث التي تجري في حياته الشخصية والوقائع التي تدور في حياته الإجتماعية. «هو ينشد أناشيده الذاتية وآماله وآلامه التي يبرهن بها على أن وجوده جزء من مجتمعه؛ فهو لا يمكن أن يكون بمعزل عنه.» (ويليك ووارين، ١٩٨٧: ٩٨) فشعر الشكوى من هذا الـمنطلق يـمثل ثورة النفس وبداية خروج الإنسان إلى مواجهة الـحقيقة مع الـجوانب السلبية والـخاصة والعامة.

وقد قسّم النقّاد الشعرَ العربي إلى أغراض متعددة، وسجلوها فى مؤلّفاتهم؛ فأبو تمام في كتابه «الـحماسة»؛ جعل الشعر العربي في عشرة أغراض، وقُدامة بن جعفر في «نقد الشعر» جعل أغراض الشعر ستة، وأبو هلال العسكري في «ديوان الـمعاني» جعلها خمسة، وابن رشيق القيرواني في «العمدة» جعل مواضيع الشعر في تسعة أبواب، ومن نقاد العصر الـحديث وهو يحيى الـجبوري قصره في ستة أبواب (الـجبوري، ١٩٨٩: ٢٧٩-٤١٧)؛ مع هذا لم يُدرج أي منهم غرض الشكوى ضمن تقسيم الأغراض الشعرية كفنٍّ شعري مستقل ذي ميزات خاصة. ولكن غرض الشكوى، وإن لم يعرف كغرض مستقل، يـمثل باباً واسعا في الشعر العربي منذ القديم حتى الآن، ولا يقلّ أهميةً عن الأغراض الشعرية الأخرى، ويمتاز بالصدق والواقعية وعمق الـمعاناة، ويشمل عناصر عقلية ومعان إنسانية ومشاهد اجتماعية وسياسية فضلا عن الـجوانب الذاتية للشاعر. ومن أبرز الدراسات التي عالـجت شعر الشكوى بحث أعدّته بتول حمدي البستاني في «ظاهرة الشكوى في شعر هذيل في الـجاهلية

وصدر الإسلام» في رسالتها الجامعية للحصول على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الموصل، وأيضا يمكن أن نشير إلى كتابي «الشعراء الكتّاب في العراق في القرن الثالث الهجري» لحسين صبيح العلاق، و«الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث الهجري» لأحمد جاسم النجدي؛ حيث عرضا موضوع الشكوى في مباحث صغيرة ضمن بحثهما الكلي.

وفي هذا المقال ندرس شعر الشكوى الذاتية وبواعثها في القرن الأول الهجري من خلال أشعار منتخبة من شعراء هذا القرن والمعاجم الشعرية دراسة تحليلية، ونكتفي ببعض الأمثلة للشكوى باعتبارها تعبيراً ذاتياً عن خلجات النفوس فيما تفصح به من مشكلات الحياة الخاصة أو العامة، وعندما تشتد وتتعقد، فيعجز الإنسان عن ملاحقتها والتحكم فيما تجره عليه من آلام نفسية. فعندئذ ينزع إلى ذاته في مناجاة بعيدة من الكذب والمداهنة حتى تفيض على لسان صاحبها شعراً.

بواعث الشكوى الذاتية في القرن الأول الهجري

١. الموت والدهر

عندما جاء الإسلام أخرج الله البشرية من ديجور الظلام إلي نور الحق والهداية، فاستحدثت أمور جديدةٌ في حياة الناس، وتلاشت أمور أخرى، وقد تركت هذه الأمور تأثيرها في الشعر ومضامينه؛ على سبيل المثال قلّت ظاهرة الشكوى من الفقر في شعر القرن الأول الهجري إلا عند بعض الشعراء الذين احترفوا مهنة السؤال منذ الجاهلية؛ والسبب هو أنّه في صدر الإسلام انتشر العدل والمساواة بين الناس، إذ حرم الإسلام الظلم، وشجّع المسلمين على مساعدة الفقراء، وفرض على المسلمين الزكاة والخمس؛ فأصبحت شكوى الشاعر موجهة إلى الله سبحانه، فيتوكل عليه، ويفوّض أمره إليه. ففي ضوء هذا التحوّل أصبح ما يشعر به الإنسان من مشاكل الحياة وآلامها أخف وطأة مما كان يشعر به الشاعر الجاهلي الذي كان يشكو دون ملجأ يلوذ به أو مجيب يجيب دعواه؛ فمن هنا اختلفت الرؤية عند الشاعر المسلم، وتضاءلت أمامه تلك التصورات المخيفة للموت والزمن، وأيقن أنّ الدنيا سبيل للآخرة، وحوادثها لا تهزّ كيانه إذا اعتصم بالله. (النجدي، ١٩٧٢: ١٩٠) فاتجه في شكواه مما يعرض له في حياته من نوائب الدهر إلى الله الذي يرى ما حل بالإنسان من المصائب، وبيده كشف الضر والبلوى.

ففي كل عصر يوجد من يشكو من الزمان وتقلّباته فيما أصابه من مكروه، وما اختلفت صور الشعراء فيما يتعلق بشكواهم من الزمان عما كان في الـــجاهلية؛ على سبيل الـــمثال يعتقد الشاعر بأن للدهر قدرة على فنائه، وفي نظره أصبح خليلاً صفيّاً للأخس من الناس، بينما قلّ حظُّ الشريف وسُدّت في وجهه طرق العيش؛ ومن هنا اتخذ الشعراء من الزمان رمزاً للتعبير عن آلامهم وأشجانهم، بينما تتوارى خلف هذا الـــمصطلح أسباب أخرى سياسية واجتماعية أو قبلية.

فأمية بن أبي عائذ (ت ٧٥هـــ.ق) يقلق من الهموم، فيضعف أمامها، ويبوح بشكوى يتوجه فيها إلى الله أن يعينه على تحملها، فيقول:

إلى اللهِ أشكو الّذي نابَني لهُ الـــحمدُ والشكرُ في كلِّ حالِ
هُوَ الـــمستعانُ على ما أتَى مِن النّائباتِ بِعانٍ وعالِ[1]
(السكّري، د.ت: ٢/٤٩٥)

كما في قول شاعر الـــخوارج عُبيدة بن هلال اليَشكري (ت٧٧هـــ.ق):

وَ مازالتِ الأقدارُ حتى قَذَفْنَني بِقُومِسَ بينَ الفَرَّجانِ وَ صُول
إلى اللهِ أشكو لا إلى النّاس أشتَكي بِقُومِسَ إذ فيها الشُراةُ حلول[2]
(معروف، ١٩٨٣: ٩٩)

إن النفوس قد صفت في ظل الإسلام، فتغيرت نظرة الشاعر للزمن، ولم يعد يجزع من الـــموت، حيث رأى فيه قَدَراً مُحتّماً من الله تعالى يحلّ بساحة الإنسان في الأجل الذي قدّره سبحانه؛ كما يقول تعالى ﴿و ما كانَ لِنفسٍ أن تَموتَ إلّا بِإذنِ اللهِ كتاباً مُؤَجَّلاً﴾. (آل عمران: ١٤٥)

الـــخنساء صورت لنا الناحيتين معاً؛ فقد ملأت الدنيا بالبكاء على أخويها عندما قُتلا في الـــجاهلية وتقول:

يا عينُ جُودي بالدُّموعِ الغِزارْ وابكي على أَروعِ حامي الذِّمارْ
وَلْتَبكهِ الـــخيلُ إذا غُودِرَتْ بِساحةِ الـــموتِ غَداةَ العِثارْ[3]
(الـــخنساء، ١٤٢٢: ٦٤)

فلما أسلمت علمت حتمية القضاء والقدر، واعتقدت بأن هذه الحياة ما هي إلا سبيل للآخرة الباقية. وهذا جعلها تدفع أبناءها الأربعة إلى الجهاد، ولانرى حافزاً وراء هذه التضحية النادرة إلا قوة الإيمان الذي غير نظرها للحياة، كما تقول:

اللهُ أَيَّدَ عُمراناً وطَهَّرَهُ وكانَ عُمرانُ يدعُو اللهَ في السَّحَرِ
يدعُوهُ سِرَّاً وإعلاناً لِيَرْزُقَهُ شهادَةً بِيدَي مِلحادَةٍ غَدِرِ[٤]

(المصدر نفسه: ١٤٨)

فتغلّبت على عاطفة الأمومة عندما قُتل أبناؤها، فلم تشكُ، ولم تبك، بل حمدت الله، وتضاءلت عندها التصورات المخيفة للموت.(حفني، ١٩٨٧: ٢٠٩) ومع هذا إننا لا ننكر أن الشكوى من الدهر والهموم لا يمكن أن نحدها بزمن دون آخر. فهي موجودة في التاريخ بكميات متغيرة، ونجدها في أي زمان ومكان مما يخرجها عن خصوصياتها إلى نطاق إنساني واسع، كغيرها من مظاهر الشكوى الأخرى؛ كالشكوى من الشيب، ورحيل الشباب، وآلام الشيخوخة، والفقر، والفراق، والغربة، والعشق، وغيرها. ويمكن أن يرتبط هذا الأمر بتقليد شعراء القرون الثلاثة الأولى لأسلافهم في الجاهلية حتى غدت هذه التقاليد الأدبية من الموروثات اللغوية، بالرغم من تغيّر الفكر والإتجاه. ولكنها ربما أخذت طابعاً آخر، فلم يعد الشعراء في كثير من الأحيان يتصورون أنّ الدهر هو القوة المدبرة والمتصرفة في تقدير الأمور، وإن بقي بعض من الرواسب المتعلقة بهذه القضية، فإن الصور الشعرية قد تختلف تبعاً لقاموس الشاعر اللغوي، وما اكتسبه من معطيات الثقافة الجديدة التي استجدت على الحياة بعد ظهور الإسلام.

بعض شعراء الشكوى لم يستطيعوا التخلص من عقدة الدهر في شكواهم؛ ومن جملة هؤلاء أبو ذؤيب الهذلي (ت٢٧ هـ.ق) الذي يصوّر ألمه وحزنه البالغ بعد فقدان أبنائه وهو في أمسِّ الحاجة إليهم، فينشد قصيدته العينية:

أَودَى بنيَّ وأعقَبُوني حَسرةً بعدَ الرُّقادِ وعبرةً لا تُقلِعُ
و الدَّهرُ لا يبقَى على حَدثانِهِ جَونُ السَّراةِ لهُ جدائدُ أربعُ[٥]

(السكّري:١/ ٦و١١)

ويبين في النهاية استسلامه لسلطان الـــمنية مع حرصه على أن يبذل كل ما يستطيع للحيلولة دون وفاة أبنائه، فيقول:

وَ لَقَد حَرصتُ بِأن اُدافِعَ عنهُم فإذا الـــمنيةُ أقبَلَت لا تُدفَعُ
و إذا الـــمنيةُ أنشَبَت أظفارَها ألفيتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ[٦]

(الـــمصدر نفسه:٨/١)

ومع أن هذه القصيدة تدخل في باب الرثاء، إلا أنها تُصور لنا الـــجانب النفسي الـــحزين للشاعر من خلال شكواه التي تبدو في ثنايا القصيدة.

٢. الـــحب والفراق

الشكوى من الفراق ظاهرة قديمة في الشعر العربي، وهي مستمرة طالـــما نبض قلب الإنسان بالـــحب، وهفا إلى أبناء جنسه ووطنه. الشكوى الذاتية تترجم للقلوب الـــجريحة؛ فنحسّ زفرات حارة من صدور متألّمة، وأوضح ما تكون هذه الزفرات عند شعراء الغزل العذري الذين اكتووا بلهيب الـــحب. فهموم هؤلاء الشعراء في جزء كبير منها، صادقة تنمّ عن عاطفة قوية.(هلال، ١٩٧٦: ١٧) وهنا لانريد أن نتحدث عن الغزل إنما نبحث الشكوى لدى شعراء الغزل، حيث استأثرت الـــمرأة بكثير من مناجاتهم النفسية، وكانت بصدها وإعراضها سبباً لكثير من الهموم والأحزان التي اشتكى منها الشعراء. وقد جاء الإسلام وصانها من الابتذال والتبرّج، ونظّم علاقات الـــمرأة مع الرجال، وأصبح الوصال إليها مقيّداً بحدود الشرع، وصار التكافؤ في الدين والنسب شرطاً للزواج؛ مما جعل بعض الشعراء يكفّ عن ذكر ما يحرّمه الشرع عن حبيبته. والـــحقّ أن شعراء الغزل قد تناسوا ما يفرض على الفتى في الـــمجتمع الاسلامي من أحكام، وقد كانت هناك قصائد تمثل البيئتين الإسلامية والبدوية. يقول كثير عزة (ت ١٠٥هـــ.ق) شاكيا من إعراض الـــحبيبة:

كأَنّي أُنادِي صَخرةً حينَ أعرَضَتْ و مِنَ الصُمّ لَو تَمشِي بِها العُصْمُ زَلَّت
كنّا سَلَكنا في صَعودٍ مِنَ الهَوَى فَلَمّا تَوَافَينا ثبتتُّ وَزَلَّتِ[٧]

(كثير عزة، ١٩٨٩: ٩٧)

و مجنون ليلى (ت٦٨هـــ.ق) يشكو من إخلاف محبوبته لوعودها ويقول:

وَ أنتِ الَّتي كلَّفْتِني دَلــجَ السُّرَى وَجُونُ القَطَا بالــجهلتينِ جُثُومُ
وَ أنتِ الَّتي أخلَفْتِني ما وَعَدتِني وأشــمَتِّ بي مَن كانَ فِيك يلومُ[٨]

(مجنون‌ليلى، ١٩٨٠: ١٩٢)

وهو يبكي لتثار شجونه حينما يجد في مظاهر الــحزن التي تهيج العاطفة لذة، ويخال نفسه أخا كل ذي شكوى من الطير ويقول:

ألَا يا حَمامَ الأيك أجريتَ مدمَعي و قَد ساحَ فَوقَ الوَجنَتَينِ غَزيرُها
و أضرَمتَ نيرَاناً بِقَلبِي وإنَّني أُكابِدُ أهوَالاً طَويلٌ قَصِيرُها
أتندبُ إلفاً قَد أذابَك بُعدُه؟! وَ تَذرِي دُموعاً قد يسيلُ غزيرُها؟![٩]

(الــمصدر نفسه: ٢٤٧)

وقد وقف الــمجتمع في وجه هؤلاء الشعراء، و لم يمكنهم من تحقيق ما يصبون إليه، فلجّ بهم الهوى وغرقوا في بحره الــمائج، وبكوا كثيراً، واشتكوا أكثر لما وضعه الــمجتمع في طريقهم من عقبات، وكانت شكواهم تكشف عن تلك الــمتاعب الــمعنوية وتصوِّر ضعفهم تجاه ما أصابهم من الــحرمان.

جميل بن معمر(ت٨٢ هــ.ق) يشكو حبيبته، ويتوسل إليها، لتجود له بالوصال، وذلك في أسلوب ينم عن الضعف لما ينوء به من الوجد واللوعة.

و أنتِ الَّتي إن شِئتِ كَدَّرتِ عِيشَتي و إن شِئتِ بعدَ اللهِ أنعَمتِ باليا
و أنتِ الَّتي ما مِن صَديقٍ ولا عِدَا يرَى نِضوَ ما أبقَيتِ إلّا رثَى لِيا[١٠]

(جميل بثينة، ١٩٩٠: ٢٢٠)

وأبو صخر الهذلي(ت٨٠ هــ.ق) يصف لوعته تجاه الــحبيبة التي حرم منها، ويشكو ويتمنى أن يستمر حبه لها حتى يلقاها يوم الــحشر، وهو لازال على عشقه الــمكين، فيقول:

لَقد تركَتْني أغْبِطُ الوحشَ أن أرَى أليفَينِ مِنها لا يروعُهما الزَّجْرُ
فَيا هَجرَ لَيلى قد بَلَغتَ بِي الــمدَى وَ زِدتَ على مَا لم يكن بَلَغَ الهِجرُ[١١]

(السكّري: ٢/٩٥٦-٩٥٧)

إن الشكوى لدى شعراء الغزل متشابهة، فكلهم قانع من صاحبته بأقلّ ما يمكن، وكلهم ثابت على حبّه مهما تعرّض له من الـمشاكل والهجر والـحرمان وخلف العهود.

فهذه التجارب التي نجدها في شكواهم من ألـم الوجد وعنفوان الـحب قد احتوت جوهراً إنسانياً لديهم بكل جوانبها، في عمقها وشدتها؛ فأصبحوا قادرين على التأثير والإيحاء. فلذلك كانوا في شكواهم يتشابهون من هذا الـجانب، ويتفاوتون من حيث الصور والـمشاعر والانفعال بالألم؛ الأمر الذي يجعل الباحث أمام أساليب واحدة تتشابه وتتداخل فيها الـمعاني والتجارب الذاتية، بينما تختلف الصور الفنية من شاعر لآخر. فانتخبنا الشواهد في هذا النوع من الشكوى من شعراء الغزل العفيف الذي يمثل العشق الصادق دون الشكوى الذاتية عند شعراء الغزل الـحضري الذي تبدو الصورة الفنية فيه مادية ووراءها لذة حسية، كما هو الـحال عند عمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ.ق).

٣. الشيخوخة

الشيخوخة من أهم بواعث الشكوى الذاتية في كل عصر، إذ هي ظاهرة مشتركة لها جوانب نفسية واجتماعية. فالشاعر يرى في الشيب تحولاً في نمط حياته؛ فيبكي الشباب العازب، ويستاء من هذا الشيب الذي حلّ به. ولاشك أن بكاء الشباب الذاهب والاستياء من الشيب القادم ظاهرةٌ إنسانية تتصل بالنفس في أدقّ خصائصها، عندما يسأم الأهل من الكبير، ويرونه شخصا عاجزا لا فائدة من بقائه وينبذونه؛ فلا يشترك معهم في أمر. هكذا تأخذ الشكوى طابعاً اجتماعياً وتبرز على صعيد البنية الاجتماعية من الـجانب النفسي؛ حيث للشخص الكبير همومه ومعاناته الذاتية، وهنا يهمنا هذا الـجانب في الشكوى الذاتية.

فالشكوى من الشيخوخة تعبير عن عواطف الشعراء الـمعمرين الذين أضناهم الكبر؛ فيشكون ويعرضون شكواهم في ذلة وانكسار طلباً للرحمة والعطف. فشعراء القرن الأول الهجري كغيرهم قد هالهم منظر الشيب، ورأوا فيه نذير ضعف؛ فاشتكوا وبكوا ونعوا شبابهم بشعر ذاتي مؤثر، حيث وقفوا على أطلال الشباب الدارسة متحسرين باكين معدّدين جوانبه الـمحمودة وسماته التي جعلته قريباً لدى النفس الإنسانية. تتراكم هموم الشاعر حينما يلتفت إلى ذاته؛ فإذا به مكبّل بقيود الشيخوخة، يعاني أوجاعها وأسقامها الـحسية والـمعنوية فلا

يملك سوى إطلاق صيحات التشكي، يبوح من خلالها بهمومه، ويبث معاناته، كما يتضح من مسكين الدارمي (ت٨٩ هـ.ق) في شكواه من الشيب، حيث يقول:

سَلبَ الشَّبابُ رداءَهُ عَنـ ـنِّي وأتبعَهُ إزارُه
و لَقد يحلُّ عليَّ حُلَّـ ـتَهُ فيعجبُني فخارُه
فَانظُر إلى شَعري تَبيّـ ـنَ كيفَ قد فَعَلَتْ ديارُه[١٢]

(مسكين الدارمي، د.ت: ٣٦-٣٧)

فالشاعر يندب شبابه المنصرم، ويصوّر نفسه قد جرد من الجمال والنضرة بحلول المشيب، فبدا شعره أبيض، وسيطر الضعف عليه؛ فجاءت عباراته ذوب نفسه وفيض حسه الحزين. وحشد في هذه الأبيات مشاعره المحترقة لفقد شبابه من خلال عباراته الموحية التي تكمن في هذا الكم من الأفعال المرتبطة بالزمن.

وأمّا الأحوص الأنصاري (ت١٠٥ هـ.ق) فيذرف الدموع الغزيرة على الشباب الذي رحل، وتمتلِئ نفسه بمشاعر القلق والأسى في غمرة ذهاب الشباب ودنو المشيب؛ فيفصح عن أساه في شكوى مؤلمة قائلا:

نَزَلَ المشيبُ فَما لَهُ تَحويلٌ و مَضَى الشَّبابُ فَما إليهِ سَبيلُ
و لَقد أَرانِي والشَّبابُ يقُودُنِي وَ رِداؤُهُ حَسَنٌ عليَّ جميلُ
فاليومَ وَدَّعَنِي الشَّبابُ كأَنَّني سَيفٌ تَقادَمَ عَهدُهُ مَفلُولُ[١٣]

(الأحوص،١٣٩٠ :١٧٥)

هذه العبارات تجلو لنا حسرته الشديدة وما يعتريه من حزن وإحساس عميق باليأس من عودة الشباب ودنوِّ المشيب، وهو شعور قد يشترك فيه كل من فقد الشباب، وتقمص المشيب في كل زمان ومكان. ولا شك أن غروب الشباب يرتبط في وعي الشاعر بأمور نفسية انطوت عليها جوانحه تجاه هذه الفترة العزيزة على النفس التي ولّت وأخذت تحل محلها أمور أخرى، ربما بدت بغيضة إلى النفس؛ فتضطرم نفسه بالأسى والحزن، حينما يودع الشباب، ويستقبل المشيب الذي يرتبط عادة بكثرة الأسقام والأوجاع، وإعراض الغواني عنه، ونشوز الزوجات منه، وسأم الأهل والأصحاب، وتنكر العشيرة له التبعات الأخرى الناتجة منها.

٤. السجن

يعد السجن من بواعث الشكوى عند شعراء القرن الأول، حيث تعرض كثير منهم للسَجن؛ فكان من أقوى البواعث لشعر الشكوى. الـمسجون يخيّم عليه القلق، وتتدافع في أعماقه الهموم، ويستشرف إلي الـحرية. إذن نتناول الـجانب الوجداني لشعر الشكوى من السجن لارتباطه بذات الشاعر ودواخله، لأن الشكوى الذاتية عند الشعراء الذين تجرعوا مرارته تعبر تعبيرا صادقاً عن الـمعاناة النفسية لديهم؛ إذ الباعث الأساسي لقصائد الشكوى من السجن هو الهموم والآلام التي يعانيها السجين، وهي تشترك جميعا في الـمنشأ النفسي والانفعال الوجداني. الشاعر يعاني من الظلم خلف قُضبان السجن، ويتعرض لأقسى العقوبات، ويهان بين الناس، عندئذٍ يرجع إلى ذاته ليغني لنفسه أعذب الكلام الذي يقطر ألـماً وحسرة.

ليزيد بن الـمفرِّغ الـحميري قصيدة لامية أنشدها تحت وطأة الظلم، حينما يئس من حلفائه الذين تركوه وهو يتجرع كؤوس التعذيب من آل زياد. هذه القصيدة تحتوي على عبارات الأسى والـحزن، حينما يغوص في غرض الشكوى والأنين من وضعه الـمؤلم.

أيها الـمالك الـمُرَهِّبُ بالقَتـ ـلِ بَلغتَ النَّكالَ كلَّ النَّكالِ
قَد تَعدَّيتَ في القِصَاصِ وأَدرَك تَ ذُحـولاً لِمعـشَرٍ أقتالِ
وأطَلتُم مَعَ العُقُوبةِ سِجني فَكم السِّجنَ أو مَتى إرسالي[١٤]

(أبوصالـح، ١٣٩٥: ١٨٧)

ومن أجمل قصائد الشكوى من السجن التي تصور الـجانب النفسي الـحزين لهذا الشاعر، تلك التي يشير فيها إلى بيع غلامه «بُرد» وجاريته «الأراكة»، إذ باعهما عليه عَبَّاد بن زياد، ولهما عنده مكانة، فازداد هماً إلى همومه:

شَريتَ بُرداً ولَو مُلِّكْتَ صَفقَتَهُ لـما تَطَلبَّتَ فِي بَيعٍ لَهُ رَشَدَا
يا بُردُ ما مَسَّنا دَهرٌ أَضَرَّ بِنا مِن قَبلِ هَذا ولا بعنا لَهُ وَلَدَا
أمَّا الأراك فَكانَت مِن مَحارمِنَا نَغْنَى بِها إن خَشِينَا الأَزلَ والنَّكدا
كانَت لَنا جَنَّةً كنَّا نَعيشُ بِها عيشاً لذيذاً وكانت جَنةً رَغدَا[١٥]

(الـمصدر نفسه:٩٦)

فهناك شعراء دخلوا السجن، وقالوا أرقّ الكلام الذي يصور دواخل أنفسهم الحزينة. أحدهم جحدر بن معاوية العكلي (ت١٠٠هـ.ق)، وهو كان لصًّا، فأخذه الحجاج، وسجنه، فصور حالته النفسية، وهو بعيد عن أهله وقد تملكه الخوف، فأنشد شجونه التي يتوق فيها إلى الحرية ويقول:

تَأوَّبَني فَبِتُّ لَها كنيعاً هُمومٌ ما تُفارِقُني حَوَانِي
هِيَ العُوّادُ لا عُوّادُ قَومي أَطَلنَ عيادَتي في ذا المَكانِ[١٦]

(القالي، ١٩٢٥: ٢٨١/١)

«إن المسجون ينوء بحشد هائل من المشاعر والأحاسيس المضطربة، يلفه ضنك وبؤس لما في السجن من مهانة تمحق الكرامة، وتفقد المرء قدره الإنساني.» (المقدسي،١٣٢٤: ١٢٠) فالمسجون يتوق إلى الحرية التي ينشدها كل إنسان، ومن هنا يأتي الجانب النفسي في الشكوى من السجن، حيث يصوّر الشاعر خلالها أفكاره وهمومه وما يخطر بباله من الأمنيات. ولظلمات السجن نصيب في إذكاء الهموم، وذلك ناتج عن اعتقاده بأنه اقترف ذنوبا وخطايا، وعليه أن يحاسب نفسه، ويتجرد من صبوات الشباب، فيزدجر عن التمادي في الغواية، وهذه الظاهرة جديدة في الشعر العربي خلال القرن الأول. وقد وجدنا الفرزدق (ت١١٠هـ.ق) بما عرف عنه من الصلابة، يضعف أمام ذنوبه، وتتضاءل نفسه الشامخة عند الخوف من الله وعقابه، ويقول شاكيا نادما على ما فرط منه:

لَقد خابَ مِن أولادِ دارمَ مَن مَشَى إلى النَّارِ مَشدودَ الخِناقَةِ أزرَقَا
إذا جاءَني يومَ القِيامَةِ قَائدٌ عَنيفٌ وسوَّاقٌ يسوقُ الفَرَزدَقَا
أخافُ وَرَاءَ القبرِ إن لم يُعافني أشَدّ مِن القَبرِ التهاباً وأضيقَا
إذا شَرِبُوا فيها الصَّديدَ رأيتهُم يذُوبُونَ مِن حَرِّ الصَّديدِ تَمَزُّقَا[١٧]

(الفرزدق، ١٤٢٠: ٣٩/٢)

هذه الظاهرة تكثر عند الشعراء الخوارج في القرن الأول للهجرة؛ حيث يشكون من خوف الذنوب ومن تقصيرهم في الجهاد والعبادة، وينعون على أنفسهم ذلك، كما يقول مالك المزموم:

ألـــم يأنِ لِي يا قلبُ أن أترُك الصِّبا وأن أزجُرَ النَّفسَ اللَّجُوجَ عَنِ الهَوَى
وَ ما عُذرُ مَن يعمَى وقَد شَابَ رأسُهُ ويبصرُ أبوابَ الضَّلالةِ والهدَى
و لَو قُسِمَ الذَّنبُ الَّذي قَد أصِبتُهُ على النِّاسِ خَافَ النَّاسُ كلُّهمُ الرَّدَى
و إن جنَّ ليلٌ كانَ بِاللَّيلِ نائماً وأصبحَ بطّالَ العَشِياتِ والضُّحى[١٨]

(عباس، ١٩٧٤: ص١٧٤)

فهو يشكو من كثرة ذنوبه وخطاياه، ويزجر قلبه، ويحثه على ترك الغواية؛ لأن ذنوبه كثيرة تنوء بحملها البشرية، وحان له أن يترك التمادي فيها، ويعود إلي الله؛ فقد كفاه ما أصاب منها، وما هو مكبل به من الهموم الناتجة عن كثرة الذنوب.

إذن الباعث الأساسي لقصائد الشكوى من السجن، هو الهموم والآلام التي يعانيها السجين، وهي تشترك جميعا في الـــمنشأ النفسي والانفعال الوجداني؛ وهذا ما حدا بنا إلى دراسة شعر السجن من جانبه الوجداني على أن له في الـــجانب الاجتماعي بحثاً أكثر بسبب العوامل والـــمشاكل التي أدّت إلى سجن هذا الشاعر أو ذاك.

٥. فراق الأبناء والأقارب

إن الشكوى من فراق الأبناء والأقارب كانت صدى للفتوحات الإسلامية وما ترتّب عليها من مقتضيات جديدة. فقد بدأ الـــجيش الـــمسلم من الـــجزيرة يفتح الآفاق، وكان من الطبيعي أن تتفرق أسر وقبائل تلبيةً لداعي الـــجهاد، فيذهب مع الـــجيش من يذهب، ويبقى من لا يتمكّن من الـــمسير مع الـــجيش أو من لا تعينه قواه على الـــمشاركة في شرف الفتح والنصر. ومن استقرائنا لنصوص الشعر فقد وجدنا جلّ من بقي من الآباء والأمهات والشيوخ والزوجات[١٩] يتشوّق إلى أقاربهم الـــمغتربين، وتزدحم نفوسهم وقلوبهم بالألم، ويكابدوا من الـــحنين والشوق إلى رؤية الأقارب؛ فيشكون ما يعانون من الـــحزن والألم.

كان من هؤلاء الشعراء الـــمخبل السعدي(ت٢٣هـــ.ق) فقد ذهب ابنه شيبان مع الـــجيش وتركه شيخا، فهو يقول شاكيا:

أَيُهلِكني شيبانُ في كلِّ ليلَةٍ لِقلبيَ مِن خَوفِ الفِراقِ وَجيبُ
يذُودُونَ جُندَ الهُرمُزانِ كأَنَّما يذُودونَ أَورادَ الكلابِ تَلُوبُ
فإن يك غُصني أَصبحَ اليومَ ذَاوياً وغُصنُك مِن ماءِ الشَّبابِ رَطيبُ
فإنِّي حَنَتْ ظَهرِي خُطوبٌ تَتَابَعت فَمَشيي ضعيفٌ في الرِّجالِ دَبيبُ

إذا قالَ صَحبي يا ربيعُ ألا تَرَى أَرَى الشَّخصَ كالشَّخصَينِ وهو قَريبُ[٢٠]

(الإصفهاني، د.ت: ١٣/١٩٠-١٩١)

لقد وضحت معاناة هذا الشاعر حينما ذكر ابنه بما كان يقدمه له وهو طفل صغير، ثم خلص إلى تصوير حاله وقد كبر، ورق عظمه، وضعف بصره، ويذكر أن فراقه له وهو في هذه الحال- حتى ولو للمشاركة في شرف الجهاد- فإنه عقوق منه لأبيه، سيحاسبه الله عليه بسببه.

ومن أجمل ما قيل في الشكوى من هذه الظاهرة قول أمية بن الأسكر (ت٢٠ هـ.ق)، يشكو من فراق ابنيه كلاب وأخيه، ويصف حاله بعد أن وهن عظمه وتقدمت به السن، فهو في حاجة إليهما بجانبه، ويتوجه بالخطاب إلى ابنيه قائلا:

يا ابنَي أميةَ إنّي عَنكما غَانِي و ما الغِنَى غَيرُ أنّي مُرعِشٌ فَانِي

يا ابنَي أميةَ إن لا تَشهدَا كبِرِي فإنَّ نَأيكما والثّكلَ مِثلانِ[٢١]

(القالي،١٩٢٥: ١٠٨)

و قال في قصيدة أخرى يشكو الفراق، ويصور حاله وحال زوجته أم كلاب:

لِمَن شَيخانِ قَد نَشدَا كلابا كتابَ اللهِ إن رقبَ الكتَابَا

تركتَ أباك مُرعِشةً يداهُ و أمَّك ما تسيغُ لها شَرابَا[٢٢]

(المصدر نفسه:١٠٩)

لقد تأثر الشعراء بعد الإسلام بالتحولات التي حدثت في نمط الحياة، واتسعت مجالاتها باتساع الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فتعقّدت الحياة وصعوباتها في كثير من الجوانب، فتأثر الشعراء بتلك التحولات، وخاصة في أواخر القرن الأول من الهجرة، فاشتكوا من فساد الناس وتغير أحوالهم، كما اشتكوا من الطبيعة وقسوتها؛ فاتسعت دائرة الشكوى مما شاع في المجتمع من أخلاق متردية تتمثل في المجتمع بمثالب: كالسعاية، والوشاية، والملق، والحسد، وسوء الحال، والفراق من الوطن.

شاعت ظاهرة العقوق لدى بعض الأبناء لآبائهم وأمهاتهم في هذا العصر خاصة بين شعراء المخضرمين، ولعل هذا من نتائج قسوة الحياة الجاهلية التي نجدها لدى بعض الأبناء الذين ترعرعوا قبل الإسلام؛ فقد خبت عواطفهم نحو آبائهم وأمهاتهم بعد أن تقدمت بهؤلاء السن. فقد شكا فرعان بن الأعرف[٢٣] من عقوق ابنه «مُنازل» الذي لم يرع شيبه، فخاطبه في

انكسار شديد مصورا ضعفه، متوسلا إلى الله، لأن يقتص له منه في أسلوب مؤثر نجد فيه العاطفة الـمتألـمة صادرة عن معاناة شديدة، فيقول:

تَغَمَّدَ حَقِّي ظالـماً ولَوى يدي — لَوى يدَهُ اللهُ الَّذي هُو غَالِبُه
و كانَ لَهُ عِندي إذا جَاعَ أو بَكى — مِن الزَّادِ أَحلَى زَادِنَا وأَطَايبُه
وَ ربَّيتُهُ حتى إذاما تركتُهُ — أخَا القَومِ واستَغنَى عَنِ الـمَسحِ شَارِبُه
أَأن أُرعِشَتْ كفَا أَبيك وأَصبَحت — يداك يَدَي لَيثٍ فَإنَّك ضَارِبُه[٢٤]

(أبوتمام، ١٩٩٣: ٢/١٦٥-١٦٦)

و جاء الـمبرد في الكامل بقصيدة لامرأة من بني هِزّان؛ باسم «أم ثواب» (الـمبرد، ١٩٨٦، ١/٣١٢)، تشكو من عقوق ابنها وانشغاله بامرأته وظلمه لها على كبر عمرها؛ فتقول:

ربَّيتُهُ وَهْوَ مِثلُ الفَرخِ أَعظمُهُ — أمُّ الطَّعَامِ تَرَى في جِلدِهِ زَغَبَا
حتي إذا آضَ كالفُحَّالِ شَذَّبَهُ — أَبَّارُهُ ونَفَى عَن مَتنِهِ الكرَبَا
أَنشَأَ يُمزِّقُ أَثوابِي يُؤَدِّبُني — أبعدَ شَيبِيَ عِندِي تَبتَغِي الأَدبَا
إنِّي لَأبصرُ في تَرجِيلِ لِمَّتِهِ — وَ خَطٍّ لِحْيَتِهِ في وجهِهِ عَجَبَا
قالَت لَهُ عِرسُه يوماً لِتُسْمِعَني — مَهلَاً فَإنَّ لَنا فِي أُمِّنا أرَبا
و لو رَأتني فِي نارٍ مَسعرةٍ — مِن الـجَحيمِ لَزَادت فَوقَها حَطَبَا[٢٥]

(الـمصدر نفسه: ١/٣١٢-٣١٣)

فشعر الشكوى الذاتية يعالـج قضايا كثيرة، ورغم أنه شعر ذاتي في جانب كبير منه، فإنه يحتوي مشاهد اجتماعية، ويشتمل على عناصر عقلية، ومعان إنسانية ذات صلة بالـحياة الذاتية والاجتماعية، ويعالـج قضايا الناس الـخاصة والعامة من زوايا نفسية وحسية بعيداً عن الـمجاملات أو تجاوز الـحقيقة. فهذا الشعر صادر عن عاطفة متألـمة في أغلب الأحيان؛ فأبرز سماته هي السهولة والبعد عن التكلف. والـجوانب الـموضوعية التي عالـجها شعر الشكوى كثيرة؛ فمنها الشكوى من الهموم الذاتية التي تعرض للشاعر في حياته نتيجةً لغدر الزمان وتقلباته، وفساد الإخوان، وتغير الناس في طباعهم ومعاملاتهم، والفراق والـحرمان في الـحب، والفقر، والشيخوخة، والدهر، والـموت، والسجن.

النتيجة

– الشعر من أقدر الأدوات على تجسيد معاناة الإنسان ورسم الأبعاد الحقيقية لظروفه الذاتية والاجتماعية والسياسية، وشعر الشكوى يعدّ حاجة نفسية يخفف الشاعر عبره وطئة همومه ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكي وصرخات الألم.

– إن أهم البواعث للشكوى الذاتية لدى شعراء القرن الأول الهجري هي: الموت، والدّهر، والحرمان في الحب والفراق، والسجن، والشيخوخة، والمرض، والذنب، ومصائب الحياة.

– في ظل الإسلام تغيرت نظرة الشاعر المسلم للحياة، ولكن شعراء القرن الأول قلّدوا أسلافهم في الجاهلية، وبالرغم من تغير الفكرة والاتجاه صارت التقاليد الأدبية من الموروثات اللغوية فأثرت على شعر الشكوى.

– شعر الشكوى يأتي حيناً على شكل قصائد مستقلة في الشعر العربي، ويأتي حيناً آخر مبثوثاً في القصائد التي تتناول الموضوعات الشعرية الأخرى.

– إنّ هذا الغرض يمثّل غرضاً شعرياً مستقلاً من حيث المعنى والصور الفنية؛ وهو لا يقل في جودته من حيث المعنى، والتفنن في الأساليب، واستعمال أدوات اللغة عن أي غرض شعري آخر. فشعر الشكوى شعر ذاتي يعالج قضايا كثيرة وموضوعات متنوعة، وتَمَيّزَ في جانبه الدلالي بصدق العاطفة وقوة التأثير بعيداً عن التزويق والمجاملات.

الهوامش

١. نابني: نزل بي. النائبات: ج النائبة: ما ينزل بالرجل من الكوارث و الحوادث المؤلمة. العاني: الذليل، الأسير. العالي: الشريف.

٢. الأقدار: ج القَدَر: القضاء الذّي يقضي به الله على عباده. قذفني: رميني. قُومِس: بالضم ثم السكون و كسر الميم، تعريب كومس: و هى كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن و قرى و مزارع و هي في ذيل جبال طبرستان و أكبر ما يكون في ولاية ملكها و قصبتها المشهورة دامغان، و هي بين الريّ و نيسابور و من مدنها المشهورة بسطام و بِيار، و بعض يدخل فيها سمنان و بعض يجعل سمنان من ولاية الريّ و حينما كان أبو تمام يجتاز بقومس إلى نيسابور ممتدحاً عبدالله بن طاهر قال هذين البيتين:

تقول في قومس صحبي و قد أخذت منّاالسّرى و خطى المهريّة القُود

أمطلع الشمس تبغي أم تؤمّ بنا فقلت: كلاّ ولكن مطلع الـــجود

(ياقوت الحموي، ١٩٧٩:مادة قومس)

الفَرْجان: كان يقال لخراسان و سجستان الفرجان (الـــمصدر نفسه: مادة الفرجان)

صُول: مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الأبواب و هو الدّربند، و ليس بالّذي ينسب إليه الصولي و ابن عمّه إبراهيم بن العباس الصولي، فإن ذلك باسم رجل كان من ملوك طبرستان أسلم على يد يزيد بن الـــمهلّب و انتسب إلى ولائه (المصدر نفسه: مادة صُول)

الشراة: جمع الشاري و هو من يبيع نفسه في طاعة الله، الـــمراد منه هنا فرقة من الـــخوارج. الـــحلول: جِ الـــحالّ: النازلون.

٣. الدُّموعِ الغِزار: الدموع الكثيرة. الأروع: الجميل. الذمار: ما يحق على المرء أن يحميه. حامي الذِّمار: حامي الشرف. الخيل: جماعة الأفراس (لا واحد له من لفظه)، الفُرسان. غُودِرت: تُركت. ساحة الموت: ساحة القتال. غداة العثار: يوم الحرب

٤. عُمران: اسم أحد أبناء خنساء. مِلحادة: صيغة مبالغة بمعنى الملحد، الطاعن في الدين، المائل عنه. الغدِر: الغدّار، الغادِر، الذّي ينقض العهد ولايفي به.

٥. أَودى بنيّ: هلكوا، ذهبوا. أَودى الشيء: ذهب. أعقبوني: أورثوني. عبرة لاتقلع: دمعاً لا يـــجفّ أبداً. يقول: كانت عقباي منهم حسرة بعد الرّقاد، أي: بعد ما ينام الناس فدمعتي لا تقلع، لأن الحزن يؤوب إليّ في ذلك الوقت فيمنعني النوم. حدثان الدهر: نوائبه. الجون: الأسود إلى الحمرة. السراة: أعلى الظهر، أراد حماراً وحشياً بهذه الصفة. الجدائد: جِ الجَدود: الأتان التي خفّ لبنها. الأربع: نعت لِـــ «جدائد»، يعني أنّ هذا الحمار له أربع أتن. يقول: لئن هلك بنيّ و أصابني ما أصابني بعدهم، فالدهر لا يبقى على حدثانه هذا الحمار الذي يعمر طويلاً.

٦. الـــمنية: الموت. أنشبت أظفارها: لا تفارق كالسبع إذا أخذ لا يفارق حتى يعضّ. التميمة: تعويذة تعلق في رقاب الأطفال حذر الغوائل. يقول: إذا جاءت المنية لا تنفع العُوَذ و الرُّقَى.

٧. أُنادِي: أدعُو، نادى فلاناً: دعاه و صاح بأرفع الأصوات. أعرضت: صدّت. صخرة من الصُّمّ: صخرة صمّاء قاسية. العُصم: الظباء و الوعول التي في أيديها بياض و هي تألف الجبال. زلّت: تعثّرت. يقول: كأني حينما أنادي عزّة أنادي صخرة صمّاء من تلك الصخور التّي إذا سارت عليها الظباء و الوعول تعثّرت، يعني عزّة لا تسمع النداء فلا تجيب. الصَّعود: المشقة، و في التنزيل العزيز: «سأرهقة صَعُوداً»، العقبة الشاقة، الطريق الصاعد. الهوى: الميل. توافينا: توافينا في الميعاد، وصل بعضنا إلى البعض في الميعاد. ثبتُّ: قاومت، صرت ثابت القدم في العشق، ثبتّ أنا في عهدي. زلّت: تعثرت عزة

٨. كلّفْتِني: أوجبتِ عليّ، فرضتِ عليّ، كلّفه أمراً: أوجبه عليه، فرض عليه أمراً ذا مشقة. الدَّلَج: السير ليلاً. السُّرى: سرى الليل، سَرْياً و سرايةً و سُرىً: مضى و ذهب. الـــجُون: جِ الـــجُونيّ: نوع من القطا سود البطون و الأجنحة. القطا: الحمام البرّي. الجِهلتان: موضع. جُثوم: قُعود. يقول: و أنت الّتي كلفتني السير ليلاً و القعود في الجهلتين كسود القطا. و أنت الّتي غيّرت ما وعدت به و جعلت من كان يلومني يشمتِ بي.

٩. الأيك: جِ الأيكة: الشجر الكثير الملتّف. المدمع: مسيل الدمع، الدمع. ساح: سال. الوجنة: ما ارتفع من الخّدين. الغزير: الكثير. أضرَمت: أوقدت. أكابد الأمر: أقاسي شدته. الأهوال: جِ الهول: الفزع، الأمر الشديد. تندب:تدعو. الإلف: المألوف، الأنيس. أذابَك: أضناك. تذري: تصبّ، تسكب.

١٠. أنعَمتِ بالي: أهدأتِ خاطري. النضو: المهزول من الحيوان، و يقال: فلان نضو سفر: مُجْهَد من السفر. رثى لي: رَحمني و رقَّ لي.

١١. غَبَطَ فلاناً: تمنّى مثل ماله من النعمة من غير أن يريد زوالها عنه. أغبط الوحش: أتمنّى مثل ما للوحش. الأليف: الأنيس. لا يروعها: لا يفزعهما. الزجر: المنع، الانتهار. يقول: ألف كل واحد منهما الأخر حتى نسيا كل ما حولهما، فإذا مرّ بهما أحد أو وقع بقربهما حادث فإنّهما لا يشعران به. بلغت بي الـــمدى: بلغت بي البُعد

١٢. سَلبَ الشَّبابُ رداءَهُ عَني: هذه كناية عن ذهاب الشباب. الرداء: ما يلبس فوق الثياب كالجبة و العباءة، رداء الشباب: حسنه و نضارته. الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. يحلُّ عليّ: يُلقي عليّ. الحُلّة: الثوب الجيّد الجديد غليظاً أو رقيقاً. فِخاره: مباهاته.

١٣. المشيب: سنّ الشيب. التحويل: الانتقال. تقادم عهده: قَدُمَ و طال عليه الأمد. المَفلُولُ: المثلوم.

١٤. الـــمُرَهِّب: المخوِف. النِّكال: العِقاب. الذُّحول: جِ الذَّحل: الحقد و الثأر. الأقتال: جِ القِتْل: المثل و النظير في القتال و غيره، الأعداء، الأقران.

١٥. شَريتَ: بِعتَ. الأراكة: كانت الأراكة قينة لابن المفرغ و برد غلامه و كان شديد الضنّ بهما فبعث إليه ابن المفرغ: أيبيع المرء نفسه أو ولده؟ (البغدادي، ١٩٨٩: ٣٢٨/٤). الصفقة: ضرب اليد عند البيع علامة إنفاذه، العقد، البيعة. لو مُلِّكتَ صفقته: لو كنت مالكاً لبيعه. تطلبّت: طلبت، سألتَ. الرَّشَد: نقيض الغيّ. نغنى بها: استغنينا بها، اكتفينا بها، غنيت المرأة بزوجها غِنىً و غُنياناً: استغنت به. الأزل: الداهية، المصيبة. النكد: الشدة و العُسر. الرغد من العيش: الكثير الواسع.

١٦. تَأوّبني: عاودني، جاءني ليلاً، تأوّبه المرض: عاوده. بتّ: صرت. الكنيع: المكسور اليد، المتقبّض المتداخل. المتداخل. الهموم: جِ الهمّ، فاعل لِـــ «تأوّبني» ما تفارقني: صفة للهموم. حواني: استولى عليّ. العوّاد: جمع العائد: الذي يزور المريض.

١٧. خاب: لم ينل ما طلب، خَسِرَ. دارم: دارم بن مالك، قبيلة عربية من حنظلة من تميم من عدنان بنوها من أشراف تميم، منهم مجاشع و سدوس، اشتهر منهم الفرزدق (المنجد في الأعلام). الخناقة: ما يخنق به، القلادة.

الأزرق: شديد العداوة. العنيف: الشديد. السّواق: السائق. إن لم يُعافني: إن لم يبرءني. الصديد: ما يذوب من أجسام أهل النار من القيح المختلط.

١٨. ألم يأن لي: ألم يحن لي، ألم يقرب لي. الصِّبا: الشوق، الميل إلى الحداثة. أزجر: أمنع. الهوي: الهوس، الميل. يعمى: يلجّ في الباطل. شاب رأسه: ابيضّ شعره، شاخ. أصبته: ارتكبته، ابتليت به. على الناس: متعلقان إلى «قُسِمَ». الردى: الموت. جَنَّ: أَظلَمَ. بطّال العشيات و الضحى: الذي ليس لديه عمل ليلاً و نهاراً.

١٩. من هؤلاء الزوجات اللواتي رزئن بفقد أزواجهن بعد فراقهن زوجة عمرو بن معديكرب الزبيدي؛ فقد مات في الجهاد فرثته بأبيات تقطر ألما وشكوى لفراقه وكذلك المرأة التي سمعها عمر بن الخطاب وقد أغلقت عليها الباب وهي تشكو فراق زوجها الذي ذهب مع الجيش المسلم و قد رقَّ عمر بن الخطاب لهذه الشكوى ووجه إلى الـــمرأة كسوة ونفقة وكتب أن يقدم عليها زوجها. (صقر، ١٣٨٧: ٣٩)

٢٠. الوَجيب: خفقان القلب. شيبان: ابن الشاعر. يذودون: يطردون، يدفعون. الهرمزان: من أمراء الجيش الفارسي في معركة القادسية ٦٣٧ انهزم إلى خوزستان حيث قاوم العرب مقاومة عنيفة. (المنجد). أَوراد الكلاب: الكلاب الحمراء. تلوب: تحوم، تدور. الذاوي: اليابس، الضعيف، ذوى العود: زَبَلَ. الرطيب: الليّن، الناعم. الصحب: ج الصاحب. حَنَت ظهري: ثنته. الخطوب: ج الخطب: الأمر الشديد، الأمر المكروه. ربيع: ربيع بن مالك بن ربيعة، اسم المخبّل. الدبيب: مِن «دبّ، يدبّ، دبيباً»: مَشى مشياً رُويداً.

٢١. إنّي عنكما غاني: لم أحتج إليكما. الغِنى: كثرة المال. الغاني: كثير المال. المُرعِش: الذي ترتعش يداه، المضطرب. الكبر: الكبر في السّن. النأى: البعد. الثكل: فقد الحبيب.

٢٢. الشَيخان: الأب و الأمّ. نشده: ناشده الله و بالله، استحلفه. كلاب: ابن الشاعر. كتاب الله: القرآن. رقب: لاحظ، خاف. تسيغ لها الشراب: تبتلعه و تستمرئه و تستطيبه.

٢٣. هو شاعر مخضرم و كان قد عقّه ولده «مُنازل» فدعا عليه (أبوتمام، ١٩٩٣: ١٦٥/٢)

٢٤. تَغَمَّدَ: سَتَرَ. لوى يدي: فتلها و أزلّها عن حالها و هيئتها، صرفها عن أخذ حقّي. لوى يده الله الذي هو غالبه: أشلّها الذي هو القادر على ذلك و الغالب عليه. أحلى زادنا: أحسن زادنا. الأطايب: ج الأطيب: أطهر زادنا. ربّيته: نمّيته، نشأتُه، غذّيته. تركته أخا القوم: تركته شاباً لاحقاً بهم معدوداً في جملتهم. واستغنـــى عن الـــمسح شاربه: ليس بصبّي ينظَّفُ من شيء يَعلق بشاربه من طعام أو غيره. أُرعشت: اضطربت.

٢٥. الفرخ: ولد الطائر. الأعظم: ج العظم: القصب الذي عليه اللحم. أمّ الطعام: الحوصلة، لأنّها مجتمع لها و الفرخ مادام صغيراً فحوصلته أعظم شيء فيه. الزغب: صغارالريش. آض: صار. الفحّال: ذكر النَخل و هو أطولها. شَذَّبَهُ: نحّى عنه فضوله من شوك و صغير سعف و يابسها، فإذا فُعِل به ذلك طال في السماء. الأبّار: مُلَقِّحَ النخل المتعهد لها بالتذكير و الإصلاح. الكرب: ج الكربة و هي ما يتبقى من السعفة بعد القطع كالكتف متصلاً بالجذع. أنشأَ: جَعَلَ. يقول: لما ربيته حتى شبّ و تمّ خلقه جعل الجفاء والضرب عِوضاً من اللطف بي و البرّ.

اللمّة: الجمّة تُلِمُّ بالمنكب. ترجيل اللمة: صنعتها بالـمُشط و الدهن. الخط: المثال و الشكل. عجباً: المفعول به لِـ «أبصر». يقول: أعجب منه الآن حين شبّ و لايَبَرُّني مع تربيتي له صغيراً و مقاساتي لمؤونته. عِرس الرجل: زوجه و هو عرسها أيضاً. مهلاً: رِفقاً بها و لطفاً. الأرب: الحاجة. يقول: تربني العناية بأمري و هي مع ذلك تكره مكاني و تسعى في ضّري. المسعرّة: المحمّاة. الحطب: يقول: لورأتني في شدة لأعانت عليّ.

الـمصادر

القرآن الكريم.

ابن دريد الأزدي البصري، أبو بكر محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، د.ت.

ابن رشيق القيرواني الأزدي، أبو علي الحسن، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠٩هـ.ق، المجلد الأول.

ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، المجلد ١-٢.

أبو تمام الطايي، حبيب بن أوس، **الحماسة**، القاهرة: المكتبة الأزهرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

أبو صالح، عبد القدوس، **يزيد بن مفرِّغ الحميري حياته وشعره**، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٥ق.

الأحوص الأنصاري، أبو محمد عبدالله بن محمد، **ديوان شعر**، تحقيق: عادل سليمان جمال، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ق.

الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، **الأغاني**، القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، د.ت، المجلد: ١٣.

الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان، **شرح حماسة أبي تمام**، تحقيق: علي المفضّل حمّودان، بيروت، دارالفكر المعاصر و دمشق، دارالفكر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

الياس، انطوان الياس، **القاموس العصري**، ترجمة سيد مصطفي طباطبائي، تهران، كتاب فروشى اسلامية، الطبعة العاشرة، ١٣٥٤ش.

أنيس، ابراهيم و آخرون: **المعجم الوسيط**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.

البستاني، بتول حمدي، **ظاهرة الشكوى في شعر هذيل في الجاهلية وصدر الإسلام**، العراق: جامعة موصل، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

البغدادي، عبدالقادر، **خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب**، تحقيق و شرح: عبدالسلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩.

التهانوي، محمد بن علي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، تحقيق: لطفي عبد البديع، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

الـجبوري، يحيي، **الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
الـجرجاني، على بن محمد بن علي، **التعريفات**، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.
جميل بثينة، جميل بن عبدالله بن معمر، أبو عمرو، **ديوان شعر**، تحقيق: حسين نصار، القاهرة: دار مصر للطباعة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
حفني، عبد الـحليم، **مطلع القصيدة العربية ودلالاتها النفسية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتّاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
الـخنساء، بنت عمرو، **ديوان الـخنساء**، شرح وتقديم: إبراهيم شمس الدين، بيروت: مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ق.
دهخدا، علي اكبر، **لغت نامه**، تهران، سازمان لغت نامه، الطبعة الثالثة، ١٣٦٢ش.
الزبيدي، سيد محمد مرتضي، **تاج العروس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت: مطبعة الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م، المجلد السادس.
الزركلي، خيرالدين، **الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و الـمستشرقين)**، بيروت، دارالعلم للملايين، الطبعة التاسعة، ١٩٩٠.
السكرّي، أبو سعيد الحسن بن الـحسين، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبدالسّتار، أحمد فرّاج ومحمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، الطبعة الأولى، د.ت، المجلدات١-٣.
صقر، عبد البديع، **شاعرات العرب**، بيروت: الـمكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
عباس، إحسان، **شعر الـخوارج**، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.
العسكري، أبو هلال حسن بن عبد الله، **ديوان المعاني**، القاهرة: مكتبة القدسي، الطبعة الأولى، د.ت، الـمجلد الأول.
العلاق، حسين صبيح ، **الشعراء الكتاب في القرن الثالث الهجري**، بغداد: مكتبة التربية، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
الفرزدق، **ديوان شعر**، بيروت: دار صادر، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ق.
فروخ، عمر، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت، دارالعلم للملايين، الطبعة الـخامسة، ١٩٨٤.
القالي البغدادي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، **الأمالي**، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٢٥م.
ـــــــــــــ، **ذيل الأمالي والنوادر**، القاهرة: دار الكتب الـمصرية، الطبعة الأولى، ١٩٢٥م.
قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن زياد، **نقد الشعر**، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.
كثير عزة، **ديوان شعر**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
الـمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
مـجنون ليلي، **ديوان شعر**، تحقيق: عبدالستار فراج، القاهرة: مكتبة مصر، د.ط، ١٩٨٠م.

المرزوقي، أحمد بن محمد: **شرح ديوان الحماسة**، تحقيق: أحمد أمين و عبدالسلام هارون، بيروت، دارالجيل، ١٩٩١م.

مسكين الدارمي، ربيعة بن عامر، ***ديوان شعر***، تحقيق: خليل ابراهيم العطية وعبد الله الجبوري، بغداد: دارالبصري، د.ط، د.ت.

معروف، نايف، ***ديوان الخوارج***، بيروت: دار الميسرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

معلوف، لويس، **المنجد في اللغة و الأعلام**، بيروت، دارالمشرق، الطبعة السابعة، ١٩٨٦.

المقدسي، أبو نصر، **اللطائف والطائف**، مصر: المطبعة الميمنية، د.ط، ١٣٢٤ق.

النجدي، أحمد جاسم، **الشعر والشعراء في البصرة حتي نهاية القرن الثالث الهجري**، بغداد: جامعة بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.

ويليك، رينية، وارين، أستن، **نظرية الأدب**، ترجمة: محيى الدين صبحي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

هلال، محمد غنيمي، **الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية**، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

ياقوت الحموي، أبو عبدالله، **معجم البلدان**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.